اللقاء الثاني من لقاءات التفسير
في شهر رمضان المبارك من عام 1437هـ

الجزء الثالث: سورة آل عمران
الآيات 33 – 44

بسم الله الرحمن الرحيم

أخواتي الفاضلات، إليكم سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفّق الله بعض الأخوات لتفريغها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تنزل في مدونة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

/!#/http://tafaregdroos.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح.
- هذه التفاريغ من اجتهاد الطالبات ولم تطلع عليه الأستاذة حفظها الله، أما الدروس المعتمدة من الأستاذة فهي موجودة في شبكة مسلمات قسم (شذرات من دروس الأستاذة أناهيد) /http://www.muslimat.net

- الكمال لله عز وجل، فكتابه هو الكتاب الوحيد الكامل السالم من الخطأ، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشيطان، ونستغفر الله..

والله الموفق لما يحب ويرضى.

الحمد لله رب العالمين والصلاة و السلام على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه أجمعين.

هذا هو لقاؤنا الثاني من لقاءات هذا الشهر المبارك من هذا العام 1437 من هجرة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم.

وفي درسنا اليوم نناقش آيات من سورة آل عمران تقرّر فيها هذا الأمر العظيم أمر النبوة والرسالة وإكرام هؤلاء العباد الذين اصطفاهم الله، وقد مرّ في درسنا أمس الكلام عن هذه النعم ة العظيمة التي أنعم الله بها على الخلق حيث أرسل الرسل و أنزل معهم الكتب ليحكم الناس بما أنزل الله ، فيحصل فصل الخطاب ، ويحصل للخلق الهداية إلى الصراط المستقيم ، ويحصل للخلق الحكم بين ما هم فيه متنازعين ومختلفين ، وهذه المنة العظيمة وهي إرسال الرسل وإنزال الكتب قد تكرّر ذكرها في كتاب الله ، وهذه الآيات من آل عمران التي سنتدارسها –إن شاء الله– اليوم فيها هذا الخبر العظيم.

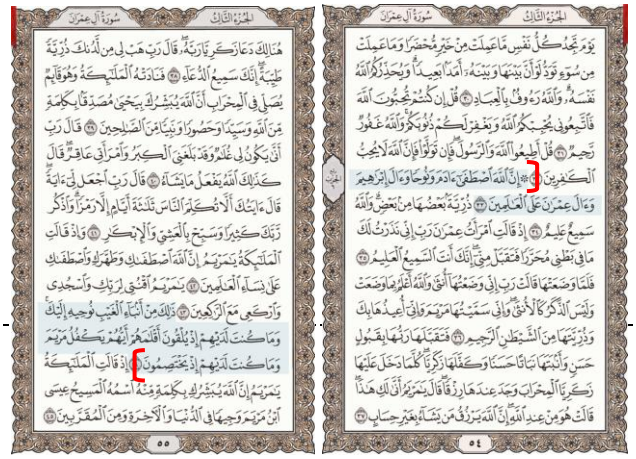

يقول الله عـز وجـل: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (33) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}.

يقول الشيخ السعدي في تفسير هذه الآيات:

يخبر تعالى باختيار من اختاره من أوليائه وأصفيائه وأحبابه، فأخبر أنه اصطفى آدم، أي: اختاره على سائر المخلوقات، فخلقه بيده ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له، وأسكنه جنته، وأعطاه من العلم والحلم والفضل ما فاق به سائر المخلوقات، ولهذا فضل بنيه، فقال تعالى: {ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا}.

إذن هذا الحق لآدم عليه السلام يُعرف ويُحفظ وينشر ويُبيّن ، وهذا الحق تفضّل الله به على آدم ، وقد لخّصه الشيخ في نقاط:

1- أن نعتقد في آدم عليه السلام أن الله اختاره على سائر المخلوقات. اختاره على الأرض ، اختاره على السماء ، اختاره على الجبال، اختاره على البحار، اختاره على الملائكة، اختاره على الجن.

2- من أثر الاختيار والاصطفاء خلقه بيده ونفخ فيه من روحه.

3- أنّ الله فضّله بأن أمر الملائكة بالسجود له.

4- أنّ الله عز وجل أسكنه الجنة.

إذن اختاره وخلقه بيده وأمر الملائكة بالسجود له وأسكنه جنته وأعطاه من العلم والحلم والفضل مافاق به سائر المخلوقات. إذن الله عز وجل خص آدم بالعلم وخصه بالحلم وخصه بالفضل.

ومن هنا أيضًا يأتينا ما بعده من التفضيل بأن فضل بنيه في مثل قوله تعالى: {ولقد كرمنا بني آدم} إذن هذا معنى قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ} وتبين لنا هذا الاصطفاء {اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا} قال:

واصطفى نوحًا فجعله أول رسول إلى أهل الأرض حين عُبدت الأوثان.

كما تبيّن أمس معنا أنه {كان الناس أمة واحدة} واتفقنا في قراءة لأُبَي (كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فبعث الله النبيين) فكان أول رسول أرسله الله هو نوح عليه السلام. يقول :

فجعله أول رسول إلى أهل الأرض حين عبدت الأوثان، ووفقه من الصبر والاحتمال والشكر والدعوة إلى الله في جميع الأوقات ما أوجب اصطفاءه واجتباءه.

وفّق وقبل نوح عليه السلام ما رُزق من نعمة الله فصبر واحتمل وشكر ودعا إلى الله، فكان هذا سبب لاصطفائه واجتبائه

وأغرق الله أهل الأرض بدعوته، ونجاه ومن معه في الفلك المشحون، وجعل ذريته هم الباقين، وترك عليه ثناء يذكر في جميع الأحيان والأزمان.

لذلك هو يعتبر الأب الثاني للبشرية، اصطفاؤه يتمثّل في أن الله عز وجل لما وفّقه للصبر والاحتمال والشكر والدعوة إلى الله في جميع الأوقات، والصبر والاحتمال كان ظاهرًا جدا في دعوة قومه في ذاك الزمان ، وكان من الشاكرين لنعماء الله، الداعين إلى الله، وكان من اجتبائه أنه لما دعا على قومه وكان قومه ذاك الوقت أهل الأرض، أغرق الله عز وجل أهل الأرض ونجاه ومن معه في الفلك المشحون، وجعل ذريته هم الباقون ، وترك عليه ثناء يذكر في كل الأحيان والأزمان.

إذًا عرفنا أن الله اصطفى آدم وعرفنا اصطفاءه ونوحا وآل إبراهيم. قال:

واصطفى آل إبراهيم وهو إبراهيم خليل الرحمن الذي اختصه الله بخلته،

هذا الأمر الأول أنه خليل الرحمن، اختصه الله بخلته.

والأمر الثاني:

أن ابراهيم عليه السلام بذل نفسه للنيران وولده للقربان وماله للضيفان،

وهذه كلها مآثر ومنازل خُصّ بها ، فمن جهة صدق توحيده كان له مقام في بذل نفسه للنيران وولده للقربان ، وصدّق هذا التوحيد بذله ماله وإعطاؤه فكل هذا سبب لمكانته العظيمة عند ربه. ثم إنه:

ودعا إلى ربه ليلا ونهارا وسرا وجهارا،

فشابه بذلك نوح عليه السلام.

وجعله الله أسوة يقتدي به من بعده،

وهذا من عظيم المنزلة أن يرزقك الله أن تكون أسوة فيقتدي بك الخلق.

والناس اليوم يستطيعون أن يكونوا أسوة لعوائلهم ولأهليهم ولطلابهم ولزملائهم ، ويأتي العلماء فيكونوا في منزلة أعلى لكن لا أحد يلحق الأنبياء بذلك خصوصا هؤلاء الذين ذكرهم الله في اصطفائه وهم قدوة يقتدي بهم من بعدهم إلى آخر الزمان.

قال:

> وجعل في ذريته النبوة والكتاب،

إذًا اصطفاه الله عز وجل بأن كان خليل له فاختصه بخلته خاصة و إبراهيم عليه السلام قد بذل نفسه للنيران وولده للقربان وماله للضيفان، وأنه دعا إلى ربه فجعله الله أسوة يُقتدى به ، وجعل في ذريته النبوة والكتاب ؛ لأن من ذريته إسماعيل ومن ذريته إسحاق وإسحاق من ذريته يعقوب ويعقوب من ذريته الأسباط الذين أتى منهم الأنبياء فجعل في ذريته النبوة والكتاب. يقول:

> ويدخل في آل إبراهيم جميع الأنبياء الذين بعثوا من بعده؛ لأنهم من ذريته،

كل الأنبياء من بعد آدم عليه السلام من ذرية إبراهيم.

> وقد خصهم بأنواع الفضائل ما كانوا به صفوة على العالمين،

يعني من ذرية إبراهيم أتى إسحاق وإسماعيل وأتى يعقوب من ذرية إسحاق ثم أتى من بعده يعقوب ، كل الأنبياء المعروفين عندنا من بني إسرائيل، موسى عليه السلام ، عيسى عليه السلام ، ومن ذرية إسماعيل أتى النبي صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء وأفضلهم وأجمع للخيرات يقول :

> وقد خصهم بأنواع الفضائل ما كانوا به صفوة على العالمين، ومنهم سيد ولد آدم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فإن الله تعالى جمع فيه من الكمال ما تفرّق في غيره، وفاق صلى الله عليه وسلم الأولين والآخرين، فكان سيد المرسلين المصطفى من ولد إبراهيم.

إذًا الله اصطفى آدم على جميع المخلوقات ، واصطفى نوح وكان الأب الثاني للبشرية وكان من ذريته البشرية بعدما أغرق الخلق بدعوته ونجاه في الفلك المشحون و إبراهيم عليه السلام هو خليل الرحمن كما تبيّن له من الفضائل ما جعل في ذريته النبوة والكتاب ثم يدخل في آل ابراهيم كل الأنبياء الذين من ذرية ابراهيم وهم كل من بعث من بعد ابراهيم عليه السلام فهو من ذريته، وعلى ذلك بين إبراهيم ونوح سيكون بقية الأنبياء المشهورين كصالح وكهود وشعيب، ومن ذرية إبراهيم عليه السلام كان النبي الكريم صل الله عليه وسلم.

وفي الآية أن الله عز وجل قال : **{إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ}** في الآية إن الله اصطفى أيضا آل عمران على العالمين الذي سميت السورة باسمه. قال:

> واصطفى الله ال عمران وهو والد مريم ابنة عمران هذا قول ،وقول آخر أو والد موسى ابن عمران عليه السلام

فهذه البيوت على اختلاف إن كان آل عمران المقصود به والد مريم بنت عمران أو المقصود به والد موسى ابن عمران والذي يظهر إنه والد مريم بنت عمران، فهذه البيوت التي ذكرها الله هي صفوته من العالمين وتسلسل الصلاح والتوفيق من ذرياتهم إذن هذه بيوت اصطفاها واصطفى أهلها وتسلسل الصلاح والتوفيق من ذرياتهم. نسأل الله أن يصلح لنا ذرياتنا جميعا.

ولهذا قال تعالى: **{ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ}** أي حصل التناسل والتشابه بينهم في الخلق والأخلاق الجميلة ، كما قال تعالى لما ذكر جملة من أنبياء الداخلين في هذه البيوت الكبيرة **{ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم فاجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم}** ولا يعكر على هذا نوح عليه السلام كان ابنه قد كفر لأن الله عز وجل قال –مخبرا عن حقيقته–: **{إنه عمل غير صالح}** فالمقصود أن هؤلاء قد جمع فيهم بين الصلاح والإصلاح من جهة وبين أنهم ذرية بعضها من بعض ومن ذرية الأنبياء وقد جمع لهم الصلاح والإصلاح.

{ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} يعلم من يستحق الاصطفاء فيصطفيه، ومن لا يستحق ذلك فيخذله ويرديه.

إذن الله سميع لكلام الخلق وأصواتهم عليم بأحوالهم فمن كان محقا للاصطفاء اصطفاه ومن كان لا يستحق يخذله ويرديه .يقول :

ودل هذا على أن هؤلاء اختارهم بما علم من أحوالهم الموجبة لذلك فضلًا منه وكرمًا.

إذن هؤلاء اصطفاهم الله لما علم من حالهم من جهة الإيمان الأقوى والرغبة في الصلاح وهذا لا يعني أن جميع ذريتهم هذه حالها إنما كانوا في أغلب حالهم أهل الإيمان فاختارهم الله واصطفاهم. يقول:

ومن الفائدة والحكمة في قصه علينا أخبار هؤلاء الأصفياء أن نحبهم ونقتدي بهم.

وهذا مطلب عظيم نتقرب به إلى الله ونحبهم ونقتدي بهم ونقرأ في خبر القرآن عنهم وفي خبر النبي صل الله عليه وسلم عنه ونحبهم ونقتدي بهم ويصبحون نجوما في سمائنا مرشدين لنا في أحوالنا. يقول:

ونسأل الله أن يوفقنا لما وفقهم وإن لا نزال نجري أنفسنا لتأخرنا عنهم وعدم اتصافنا بأوصافهم وميزاتهم الجميلة، وهذا أيضا من لطفه بهم وإظهار الثناء عليهم في الأولين والآخرين.

ونحن بعد هذه القرون المتطاولة نقول نوح عليه السلام ونقول ابراهيم عليه السلام وموسى هذا من لطفه بهم أن أبقى ثناءهم وذكرهم مرفوعا إلى يوم القيامة

والتنويه بشرفهم مشهور بين الخلق فلله ما أعظم جوده وكرمه.

وهذا لما ينظر الإنسان يرغب فيها فإن من عامل الله وأحسن في الطاعة وتقرب إليه بالطاعات وابتعد عن معاصيه من يفعل هذا فقد عامل الله وإذا عامل الله سيكون أثر هذه المعاملة الخير الكثير الذي يلحق العبد في الدنيا قبل الآخرة وإن قلل الناس من قيمته وإن عارضوه وأن حاربوه فإن معاملة الله والتجارة معه من أكثر الأمور فائدة على الإطلاق ما في أمر أكثر منها فائدة.

يقول:

لو لم يكن لهؤلاء لهم من الشرف إلا أن أذكارهم مخلدة ومناقبهم مؤبدة كفى بذلك فضلا

وهذا أمر صحيح يكفي أن الخلق لا زالو يثنون عليهم في كل حال ويندر أن يكون للمخلوقين إنما هو فضل من رب العالمين يقول:

ولما ذكر فضائل هذه البيوت الكريمة ذكر ما جرى لمريم والدة عيسى عليه الصلاة والسلام وكيف لطف الله بها في تربيتها ونشأتها

وهذا الذي سنسمعه إنما هو جزء من آثار لطف الله بهؤلاء الأنبياء وهذا الجزء الذي سنسمعه يتبين فيه صبرهم واحتسابهم وتبين فيه المصابات التي قد تصيبهم ورضاهم عن الله الذي أورثهم جنات النعيم . فقال

{إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ} أي والدة مريم لما حملت.

{رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا} أي جعلت ما في بطني خالصا لوجهك محررا لخدمتك وخدمة بيتك

وهذا شأن معروف عندهم لكونهم يقدمون أبنائهم وينذرونهم لخدمة البيت ولما نذرت طلبت القبول فقالت فتقبل مني هذا العمل المبارك ورغم أن العمل يكون مشروعا في الدين لكن القيام به لا يدل على قبول الله له ويكون مشروع للإنسان أن يطلب الله القبول بعد كل عمل.

{فَتَقَبَّلْ مِنِّي} هذا العمل المبارك.

{إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} تسمع دعائي وتعلم نيتي وقصدي، هذا وهي في البطن قبل وضعها.

أعلم أنك أنت السميع العليم فأعلم أنك تسمع سؤالي وتجيب ندائي. يقول:

{فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى} كأنها تشوّفت لأن يكون ذكرا ليكون أقدر على الخدمة و أعظم موقعا ففي كلامها نوع عذر من ربها.

يعني اعتذرت عن كونها نذرت وكانت تتوقع أنه ولد و أنه سيكون في الخدم ة أعظم لأنها تحب أن يكون من ذريتها من تتقرب به إلى الله في خدمة دين الله وقد كان مشروعا مشروع عندهم أن ينذر الأبناء لخدمة البيوت بيوت الله والمقصود هنا بيت المقدس. فلما وضعتها أنثى كأنها تعذرت لذلك يعني اعتذرت لذلك لكونها بنت وستكون خدمتها أضعف وأصعب والله أعلم بما وضعت.

فقال الله: **{وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ}** أي: لا يحتاج إلى إعلامها، بل علمه سبحانه وتعالى متعلق بها قبل أن تعلم أمها ما هي.

لكن هي لم تكن تُعلم إنما كانت تعتذر **{وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ}** فهي تفهم أن الذكر ليس كالأنثى، وهذا تفضيل للذكر على الأنثى والتفضيل هنا له مقامه من جهة القيام بهذه المهمة ، أما في الأعمال الصالحة والقربى إلى الله فقد تكرر في كتاب الله أن الذكر كالأنثى في تقربهم وفي قبول الأعمال وفي الشرف والمنزلة ؛ لأنكم تسمعون هنا عن مريم وهي امرأة وتسمعون عن خديجة رضي الله عنها وهي امرأة وتسمعون عن عائشة وعن فاطمة رضي الله عنهما وهم نساء، فهذا بالتصريح في كتاب الله وبما في سنة نبي الله من أحداث ومواقف تنص أن الذكر والأنثى من جهة قبول أعمالهم وارتفاع منزلتهم سواء من أحسنوا أحسن الله إليهم **{من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن}** ثم أتت الوعود على كل حال. يقول:

{وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ} فيه دلالة على تفضيل الذكر على الأنثى، وعلى التسمية وقت الولادة.

لأنها قالت (وإني سميتها مريم).

وعلى أن للأم تسمية الولد إذا لم يكره الأب.

لأن هذا استنباط من الشيخ أنه لما سمتها لا مانع أن تسمي الأم وإن كان من حق الأب لكن لا مانع أن تسمي الأم إذا لم يكره الأب.

{وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} دعت لها ودعت لذريتها أن يعيذهم الله من الشيطان الرجيم.

تعيذها وتعيذ ذريتها من الشيطان الرجيم دعت لها ولذريتها أن يعيذهما من الشيطان الرجيم.

وهذا فيه من فقه المرأة ما فيه لأن أعد الأعداء على من استقام على طاعة الله .الشيطان يسول له ويملي له ،والشيطان العدو لابد من الاستعاذة منه ومن شره لكي يسلم عمل الانسان ويقبله الله قال الله عز وجل:

{فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ} أي جعلها نذيرة مقبولة وأجارها وذريتها من الشيطان ، {وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا } أي نبتت نباتا حسنا في بدنها وخلقها وأخلاقها ؛ لأنّ الله تعالى قيض لها زكريا عليه السلام {وَكَفَّلَهَا} إياه، وهذا من رفقه بها ليربيها على أكمل الأحوال،

{وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} فهي قد نذرتها لخدمة البيت وقد تولى شأنها زكريا عليه السلام.

فنشأت في عبادة ربها وفاقت النساء

يعني كون أن زكريا وهو في بني إسرائيل يدخلها هذا معناها أنه سيربيها أحسن التربية على دين الله وهذا هو المتوقع أن من زاد علمه ومعرفته بربه أحسن في تربيته أسأل الله أن يرزقنا الإحسان في التربية قال:

فنشأت في عبادة ربها وفاقت النساء وانقطعت لعبادة ربها، ولزمت محرابها أي: مصلاها فكان {كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا}.

وهذا من الأشياء العجيبة التي خصت بها وابتدأت هذه الأشياء التي اختصت بها وكان فيها إشارة لما سيحصل لها من كرامة ومكانة.

{كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا} وجد عندها ما تأكله وتشربه.

أي من غير كسب ولا تعب، بل رزق ساقه الله إليها، وكرامة أكرمها الله بها

فكان يسألها زكريا:

فيقول لها زكريا{ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ}

فهي مؤمنة تعلم قدرة الله مؤمنة ترى أن كل شيء من فضل الله قال

فضلا وإحسانا {إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} أي: من غير حسبان من العبد ولا كسب، قال تعالى: {ومن يتق الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب}

ويأتي المعنى الآخر الذي تناقشنا فيه أمس {إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} فإنه لا يحاسب إلا من يخاف أن تنفذ خزائنه والله يرزق من يشاء بغير حساب ولا تنفذ خزائنه ولا ينقص من ملكه شيء. يقول:

وفي هذه الآية دليل على إثبات كرامات الأولياء الخارقة للعادة، كما قد تواترت الأخبار بذلك.

معناها أن مريم تعتبر من الأولياء وسبب إطلاق الولاية عليها أنها كانت عابدة تقية أعطاها الله عز وجل خارقة للعادة وهي أن يأتيها طعامها وشرابها من عند الله لابتعب ولا ببذل ولا بوضع ولابرفع وهذا أمر عجيب لكن فيه دليل إثبات كرامات الأولياء الخارقة للعادة.

فلما رأى زكريا عليه السلام ما من الله به على مريم، وما أكرمها به من رزقه الهنيء الذي أتاها بغير سعي منها ولا كسب، طمعت نفسه بالولد

يعني كان هذا نموذج لزكريا أن الأسباب غير موجودة لكن رب الأسباب يوجد ما لا يمر على خاطر الانسان من أسباب العطايا ويعطيه إياها ويقربها له فهذا كان واضح في كرامة مريم فأطمع هذا زكريا بلا أسباب يعطي بلا أسباب فطمعت نفسه للولد والسبب أنه شيخ كبير لاينجب مثله فلهذا قال تعالى مبينا حال طمع زكريا .

فلهذا قال تعالى: **{هُنَالِكَ}**

يعني في ذاك الموطن.

{دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاء } أي: دعا زكريا عليه السلام ربه أن يرزقه ذرية طيبة، أي: طاهرة الأخلاق، طيبة الآداب، لتكمل النعمة الدينية والدنيوية بهم.

وهذا مطلب أن يكون الأبناء صالحين في دنياهم صالحين في أخراهم . قال:

فاستجاب له دعاءه، وبينما هو قائم في محرابه يتعبد لربه ويتضرع نادته الملائكة:

ماذا تقول الملائكة في النداء؟ **{أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ}**

ما هي الكلمة ؟ فإنه سيأتي لزكريا ابن سيكون مصدق لعيسى .

{أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ} أي: بعيسى عليه السلام، لأنه كان بكلمة الله **{وسيدًا}** أي : يحصل له من الصفات الجميلة ما يكون به سيدا يرجع إليه في الأمور .

فيكون سيدا على الخلق والمقصود بها أن يكون قدوة في تصديق هـ قائدا لمن وراءه لسلامة عقله وريحانه ولظهور علامات الفطنة فيكون سيدا ليتبعه القوم وكلامه ينفذ فيهم.

{وحصورًا} أي : ممنوعا من إتيان النساء،

وهذه الصفة لتقويته على طاعة الله.

فليس في قلبه لهن شهوة

هذا يسبب أي شيء ؟ يسبب اشتغاله بالطاعات يكون حصورا ينشغل عن النساء لا شهوة عنده إنما للحفظ

اشتغالا بخدمة ربه وطاعته.

خدمة ربه المقصود منها التقرب إليه بالشكر والذكر والطاعة.

{وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ} فأي بشارة أعظم من هذا الولد الذي حصلت البشارة بوجوده، وبكمال صفاته، وبكونه نبيا من الصالحين.

و زكريا كما يتبين في سورة المؤمنون كان يحمل هم بني إسرائيل، فإنه يعلم خباياهم وأحوالهم وضعف تمسكهم بدينهم، فكان يتمنى من ذريته من هو نبي يقودهم ويوصلهم إلى ربهم فرزقه الله هذا الرزق وأتت هذه الصفات.

فقال زكريا من شدة فرحه {رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ} وكل واحد من الأمرين مانع من وجود الولد،

هو أصبح كبيرًا وأيضا امرأته عاقرًا.

فكيف وقد اجتمعا، فأخبره الله تعالى أن هذا خارق للعادة، فقال: {كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ} فكما أنه تعالى قدر وجود الأولاد بالأسباب التي منها التناسل، فإذا أراد أن يوجدهم من غير ما سبب فعل، لأنه لا يستعصي عليه شيء،

فإذًا لما أخبره سبحانه وتعالى أن ابنه ستكون هذه صفاته وقع له الاستعجاب فبين سبحانه وتعالى أنه يفعل ما يشاء وما يشاء أن يجعل للأشياء أسباب وربما شاء ألا يجعل للأشياء أسباب وهنا لم يجعل لها أسباب

فقال زكريا عليه السلام استعجالا لهذا الأمر، وليحصل له كمال الطمأنينة : {رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً} أي: علامة على وجود الولد.

وهذا من الفرح بالنعمة وطلب الطمأنينة، ليس شكا في أمر الله وإنما رغبة في بقاء النفس في حالة من الفرح بالنعمة، فتأتي الأدلة المبينة تزيد انشراح النفس وقوتها وهذا لا مانع منه.

{قَالَ آيَتُكَ أَلا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلا رَمْزًا}

وأتت الآية من جنس إعطاء الولد، ما معنى الآية؟

أي: يحبس لسانك عن كلامهم من غير آفة ولا سوء ،

ما تستطيع أن تكلمهم وما فيك لا آفة ولا سوء ولا مرض.

فلا تقدر إلا على الإشارة والرمز.

تأتي هذه الآية مناسبة لما أوهب يقول:

وهذه آية عظيمة أن لا تقدر على الكلام. وفيه مناسبة عجيبة، وهي أنه كما يمنع نفوذ الأسباب مع وجودها، فإنه يوجدها بدون أسبابها.

فكم لله على الخلق من فضل بأن بين لهم هذه الأسباب اللي فيها خارق للعادة قدرته على كل شيء وحكمته في وضع كل شيء في موضعه.

فإنه يوجدها بدون أسبابها؛ ليدل ذلك أن الأسباب كلها مندرجة في قضائه وقدره، فامتنع من الكلام ثلاثة أيام، وأمره الله بشكره ويكثر من ذكره بالعشي والإبكار، حتى إذا خرج على قومه من المحراب {فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيًّا} أي: أول النهار وآخره.

لما ذكر الله عز وجل لنا هذا الأمر الذي يقوي رجا ءنا في كل شأن أن ربنا لما اصطفى هؤلاء و أعطاهم ما أعطاهم من الكرامات دليل على عظمة قدرة الله وسعة علمه وأنه يفعل ما يشاء وأن هؤلاء الأنبياء لا تختلف أبدا في مكانتهم عند ربهم قال الله عز وجل مخبرا عن مريم: {وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ}

أتى الكلام عن اصطفائها مرتين، يقول:

يروه تعالى بفضيلة مريم وعلو قدرها، وأن الملائكة خاطبتها بذلك فقالت : {يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ } أي : اختارك {وَطَهَّرَكِ} من الآفات المنقصة.

وهذا التطهير معناه أن الخلق يشتركون في آفات فيخلص الله عز وجل بعض خلقه منها يكون هنا الاجتباء والاصطفاء.

{وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ} الاصطفاء الأول يرجع إلى الصفات الحميدة والأفعال السديدة،

يعني أصبحت لست مثل النساء اصطفاك الله فكمل لك النقص والعيب الذي يمكن يكون في النساء أو في الناس عموما.

والاصطفاء الثاني يرجع إلى تفضيلها على سائر نساء العالمين. إما على عالمي زمانها، أو مطلقا،

يعني العالم في زمانها أو مطلقا عالمي زمانها أو العالم إلى أن تقوم الساعة وهذا ممكن.

وإن شاركها أفراد من النساء في ذلك كخديجة وعائشة وفاطمة، فهذا لم يناف الاصطفاء المذكور، فلما أخبرتها الملائكة باصطفاء الله إياها وتطهيرها، كان في هذا من النعمة العظيمة والمنحة الجسيمة ما يوجب لها القيام بشكرها،

يعني الملائكة كلمتها وخاطبتها فقالت لها: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ}

وكلام الملائكة معها لا يفهم منه أنه وحي و إنما يفهم أنه إما إلقاء في الروع أو ما يشبه ذلك سواء ما أخبرتها الملائكة باصطفاء الله لها وتطهيرها إياها كان في هذا من النعمة العظيمة التي توجب الشكر.

فلهذا قالت لها الملائكة: {يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ}.

وبدأت تأتيها الأوامر، فهذا أمر لنا فيه قدوة وأسوة فإن من أعطاه الله وزاده عن الخلق بشيء وجب عليه الشكر والشكر لا يكون إلا بالطاعات يقول:

{اقْنُتِي لِرَبِّكِ} القنوت دوام الطاعة في خضوع وخشوع ، {وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ} خص السجود والركوع ؛ لفضلهما ودلالتهما على غاية الخضوع لله.

إذن معناه الله اصطفاك فمقابل الاصطفاء تكون الطاعة والعبادة.

ففعلت مريم، ما أمرت به شكرا لله تعالى وطاعة، ولما أخبر الله نبيه بما أخبر به عن مريم، وكيف تنقلت بها الأحوال التي قيضها الله لها، وكان هذا من الأمور الغيبية التي لا تعلم إلا بالوحي.

وهذا الخبر خاصة في خبر مريم وكيف تنقلت لما نذرتها أمها من يكفلها من هؤلاء الذين يقومون على البيت وكيف حصل أن كان يأتيها رزقها فيدخل عليها فيجد الرزق هذه الأحوال كلها والأخبار ليست إلا أخبار غيب فأخبر بها النبي صلى الله عليه وسلم فاعتقد وسمعناها فاعتقدنا، وننتظر أن نلقى ربنا بها معتقدين أن الله اصطفى آدم معتقدين أنه اصطفى نوح أنه اصطفى آل إبراهيم على العالمين وأنه اصطفى آل عمران منهم امرأة عمران ومنهم مريم.

قال: {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ} أي: عندهم {إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ} لما ذهبت بها أمها إلى من لهم الأمر على بيت المقدس.

أخذتها تحقيقا للنذر على أنهم يكفلونها ويربونها فتكون ممن يخدم.

فتشاحوا وتخاصموا أيهم يكفل مريم، واقترعوا عليها بأن ألقوا أقلامهم في النهر، فأيهم لم يجر قلمه مع الماء فله كفالتها، فوقع ذلك لزكريا نبيهم وأفضلهم، فلما أَخْبَرَتَهُم يا محمد بهذه الأخبار التي لا علم لك ولا لقومك بها دل على أنك صادق وأنك رسول الله حقا.

وكما تعلمون سورة آل عمران نزلت في المحاجاة مع النصارى لما تأتي أخبار آل عمران وتفاصيلها إنما هذا يوجب التسليم هذه أخبار ليس لك علم أنت ولا قومك، دل على هذا أنك صادق وأنك رسول الله حقا.

فوجب عليهم الانقياد لك و امتثال أوامرك، كما قال تعالى : {وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأم ر} الآيات.

فإخبار النبي صلى الله عليه وسلم عن هؤلاء الأفاضل وعن أحداث حصلت لهم هم يعلمونها ويدركونها وهم وقومهم لم تكون مشهورة عندهم يوجب التسليم منهم أن الرسول رسول من عند رب العالمين.

ونحن نشهد أن رسولنا رسول من عند رب العالمين ونشهد أن هؤلاء الأنبياء كلهم أرسلهم الله رب العالمين فقاموا بما أمرهم الله وحققوا عبودية الله وكانوا لنا خير قائدين إلى الصراط المستقيم ، نرجوا أن نلقى ربنا ونلقى رسولنا ونلقى الأنبياء ونشهد عند ربنا بصدق رسولنا وصدق الأنبياء صلى الله عليهم جميع وسلم وجعل حبنا لهم وعقيدتنا فيهم سبب لرفعتنا عند ربنا وقبول عباداتنا وطاعاتنا عند رب العالمين، اللهم آمين.